

الحركة الطلابية التونسية:

النشأة والتأسيس وقضايا الهوية

د. سالم لبيض*

17-12-2014

مقدمة : تعد الحركة الطلابية التونسية احدى أهم الحركات الاجتماعية التي عرفتها تونس والوطن العربي ككل وقد كانت ولادتها سابقة من حيث الزمن على الحركة الاجتماعية الأبرز وهي الحركة النقابية. فقد شكّلت منبتا وأكاديمية متميزة لخلق الكوادر والنخب والانتلجنسيا وهو الأمر الذي غدّى مسيرة الدولة التونسية منذ فترات مبكرة وكذلك المجتمع المدني والأحزاب والتنظيمات السياسية بمختلف توجهاتها الأيديولوجية والفكرية⁽¹⁾. لا أحد يمكنه فهم ما يجري اليوم في تونس من تحولات عميقة في مستوى كل من المجتمع والدولة دون أن يفكك ذلك اللغز المسمى بالحركة الطلابية. فهذه الظاهرة الاجتماعية المركبة وفق تسمية عالم الاجتماع الفرنسي موس ترشدنا إلى المفاتيح التي يتوجب علينا استعمالها في إدراك حقيقة الفاعلين السياسيين والإجتماعيين الذين يرسمون الصورة التي إنتهت إليها تونس. وإذا أردنا تبسيط المعنى فلا بد ان نقرّ بأن الجامعة التونسية هي كان يحدد مآلات المجتمع ولا يزال، وقد كان ذلك من خلال هياكلها الرسمية والشكلية خلال الفترة الهيمنية للدولة على المجتمع ، أما وقد تحرر هذا المجتمع فإن القطاع اللاشكلي الجامعي أو الحركة الطلابية بعد أن تخلصت من الوصم التي نُعتت به يوما هي التي باتت ترسم ملامح هذا المجتمع وتحدد شكل الدولة والقائمين عليها. وهذه الورقة تتضمن محاولة تفكيكية للحركة الطلابية التونسية نشأة وتأسيسا وخطابا دار في مجمله حول قضايا الهوية هاهو يتبلور اليوم في الدستور

* أستاذ علم الاجتماع السياسي، جامعة تونس المنار ووزير التربية السابق

(1) انظر في هذا الشأن ضيف الله (محمد) تراجم الناشطين في الحركة الطلابية التونسية 1910 -

1991 سلسلة البحوث المنشورات الجامعية بمنوبة الطبعة الأولى سنة 2014 ، حيث تناول الباحث

سيرة 650 ناشط طلابي أثاروا فيما بعد في الحياة العامة السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية والفكرية بأن تولوا المراكز العليا في الدولة والأحزاب السياسية والمنظمات النقابية والاكاديميات الفكرية والعلمية.

التونسي الجديد لأن الذين وضعوه أو ساهموا فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نهلوا يوماً من علم الحركة الطلابية التونسية الذي كان يتبادلته الطلاب بالتوازي مع العلم الرسمي الذي يقدمه أساتذتهم في المدرجات.

1 - نشأة الحركة الطلابية:

يتفق الدارسون للتاريخ الطلابي في تونس على أن النشأة الأولى للفعل الطلابي وللحركة الطلابية كانت نشأة زيتونية بمعنى ولادة تلك الحركة في أروقة جامع الزيتونة وبين صفوف طلابه⁽²⁾. وتعود جذور الفعل الطلابي الزيتوني في تونس إلى سنة 1910. وعلى الرغم من أن عدد الطلبة الزيتونيين لم يتجاوز الألف طالب إلى حدود ذلك التاريخ، إلا أن تلك الشريحة تمكنت من خوض بعض التحركات التي ارتبطت في الذاكرة الطلابية بتلك السنة وقد تمحورت حول المطالبة بإصلاح التعليم وتعصيره⁽³⁾، وتحسين وضعهم المادي، حتى أنهم وجهوا عريضة إلى الحكومة يطالبونها بتحسين ظروف الدراسة والإقامة والإعفاء من ضريبة المجبي ومن الخدمة العسكرية. وهو ما دفع سلطة الإشراف إلى الاهتمام بهذا الموضوع وتكوين لجان متابعة.

ولكن تلك التحركات انتهت إلى الدخول في سلسلة من الأفعال الاحتجاجية التي وصفت بأنها عنيفة والمتمثلة في إضراب 18 أبريل 1910، وفي مظاهرة ثلثه، جابت أروقة "المدينة العربي" أين يوجد مقر الحكومة التونسية بالقصبة. وعلى الرغم من قبول الحكومة مبدأ التفاوض عبر استقبال وزير القلم لوفد طلابي من المتظاهرين. إلا أن الأحداث سرعان ما أخذت منحى تصعيدياً انتهت إلى سلسلة من الاعتقالات ورفت مجموعة من الطلاب من مقاعد الدراسة في الجامع الأعظم ونفي البعض الآخر إلى الجنوب التونسي وذلك بعد أن تصاعدت الحركة الاحتجاجية.

(2) توجد العديد من الدراسات الهامة حول مؤسسة جامع الزيتونة والتعليم الزيتوني على وجه الخصوص ويمكن الإشارة على سبيل الذكر الحصر إلى:
- العياشي (مختار)، البيئة الزيتونية 1910-1945 مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلامية التونسية، تعريب حمادي الساحلي-دار تركي للنشر 1990.
- ضيف الله (محمد)، الحركة الطلابية التونسية 1927-1939، مؤسسة التسمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان-تونس 1999.
(3) ضيف الله، المرجع نفسه، ص 65 و 105.

2- اللغة والانتماء في الفعل الطلابي المؤسسي: مثلت قضية اللغة إحدى أبرز المسائل التي حظيت بالاهتمام الطلابي إبان الفترة الممتدة بين 1910 تاريخ الفعل الطلابي الأول ونهاية الحرب العالمية الثانية. لقد كانت الإدارة الاستعمارية تدرك طبيعة العلاقة بين اللغة العربية والإسلام حتى أن أحد الدارسين الاستعماريين اعتبر اللغة العربية منبثقة مباشرة عن الدين الإسلامي⁽⁴⁾.

كانت أولى المعارك التي خاضها الطلبة الزيتونيون مع السلطة الاستعمارية إثر إصدار تلك السلطة الأمر المؤرخ في ماي 1928 الذي يفرض على المترشحين لمناظرة عدول الإشهاد إجراء اختبار في اللغة الفرنسية. وقد جوبه ذلك بالإجراء بعدة تحركات بدأت في مطلع السنة الدراسية الموالية بالإضرابات سرعان ما تحولت إلى مظاهرات انضمت إليها عدة شرائح شعبية أخرى ولقيت دعم قوى سياسية عديدة. فقد جاء في أحد المناشير الداعمة لذلك التحرك "لنقاوم الاستعمار الذي يريد محو خصائص الشعب التونسي بالاعتداء على لغته وتقاليدته وتعليمه القومي... اعلموا أن هذا الإضراب لن ينجح بدون مساندتكم فاحتجوا حينئذ بالأعمال لا بالأقوال وعبروا عن استنكاركم بالتجمهر في الشارع"⁽⁵⁾. وبالرغم من انتهاء ذلك التحرك بممارسة حملات قمعية ضد الطلبة الزيتونيين واعتقال بعضهم وطرد البعض الآخر ونفيهم إلى أقصى الجنوب، فإن عمليات التهميش الاستعماري الفرنسي للغة العربية بقيت تشكل موضوعا سريع التأثير في الفعل الطلابي. فقد تجددت التحركات بعد صدور الأمر العلي المؤرخ في 7 فيفري 1936 القاضي بفرض معرفة اللغة الفرنسية لترسيم الموظفين التونسيين. وعلى الرغم من أن أغلب الطلبة الزيتونيين كانوا يحذقون اللغة الفرنسية نظرا إلى أنهم تعلموها في المدارس الفرنكو-عربية فإن تعاملهم مع تلك المسألة كان تعاملًا مبدئيًا معتبرين ذلك الإجراء بمثابة الاعتداء على ثقافتهم العربية رافضين منح اللغة الفرنسية أي امتياز وأي فرصة للتسرب إلى برامجهم الدراسية باعتبارها لغة المستعمر. وكما هو الشأن بالنسبة لأمر 8 ماي 1928 فقد أثار هذا الإجراء ردود أفعال الشريحة الطلابية بالدرجة الأولى التي عبرت عن رفضها المطلق لربط الترسيم في الوظيفة العمومية بمعرفة الفرنسية ودعت إلى القيام بتحركات بدأت بالمناشير التحريضية لتتحول بسرعة إلى إعلان الإضراب

⁽⁴⁾ غبريال باير، "الدين في خدمة القومية في تونس" نقلا عن المرجع نفسه، ص 149.

⁽⁵⁾ العياشي، نفس المرجع، ص 150.

اللانهائي عن الدروس ، بدأ يوم 22 فيفري في مركز الجامع الأعظم وانتشر إلى فروع عديدة، تلا ذلك تظاهر الطلبة في الشوارع ومواجهة القوات العسكرية الفرنسية. وكانت نتيجة تلك المعارك سقوط جرحى ومعتقلين وتنفيذ محاكمات في حق 33 طالبا نتجت عنها إجراءات زجرية عديدة مثل السجن والطرده من الدراسة والإبعاد إلى منطقة التراب العسكري.

ولكن تلك التحركات لقيت دعم الرأي العام الذي كان يعتبر أن المس من اللغة العربية مس في الآن نفسه من الدين الإسلامي وأن "القرآن لا يمكن أن يقرأ إلا باللغة العربية"⁽⁶⁾. لقد كان الطلبة الزيتونيون يدركون أن الإستراتيجية الاستعمارية في الهيمنة تقوم على السيطرة الاقتصادية والعسكرية وأيضا على ما يمكن تسميته التسرب الثقافي الذي يعتمد مبدأ تغيير الهوية بخلق ازدواجية تبدأ لغة وتنتهي ثقافة ومعتقدا. فقد جاء في الصحافة الطلابية السرية قبيل نهاية الحرب الثانية "أيها الشعب... إن فرنسا التي جوعتك وفقرتك واضطهدتك وقاومت دينك وتهجمت على لغتك تريد الآن أن تقطع أوامر القرى التي تربطك بالشرق العربي وتحاول أن تقيم لنا الدليل على أن نقطة الاستقطاب ليست مكة المكرمة بل باريس، أيها الشعب إن تونس العربية تدخل مرحلة الكفاح من أجل انتصار العربية والإسلام..."⁽⁷⁾.

3- التنظيمات الطلابية النقابية وقضايا الهوية :

أ- الهوية في خطاب منظمة صوت الطالب الزيتوني:

تعتبر تجربة لجنة صوت الطالب الزيتوني التي تأسست يوم 19 فيفري 1950 تجربة قصيرة فهي لم تدم سوى سنوات محدودة حتى أنه بالإمكان تقدير عمرها الحقيقي الذي كان في حدود الخمس أو الست سنوات. فقد تركزت حركتها حول مسائل الإصلاح التعليمي بالجامع الأعظم وفروعه. ولكن اللجنة خاضت تجربة سياسية ضاهت تجارب بعض الأحزاب السياسية. فقد اهتمت لجنة صوت الطالب بالقضية الوطنية وعلى تلك الأرضية تحددت مواقف اللجنة من الاستعمار الذي يعتبره أحد أبرز رموز اللجنة وهو "محمد البدوي" العدو المشترك قائلا "إن الأعداء قد سيروا دواليبنا برسالة التمديدية وما

⁽⁶⁾ المرجع نفسه، ص 163-164.

⁽⁷⁾ المرجع نفسه، ص 186.

هي إلا نوع من أنواع الشعوذة الأوروبية المخدرة وعذر من الأعذار التي يتخذونها ذريعة لاستعباد بني البشر...⁽⁸⁾.

كما اعتبرت لجنة صوت الطالب أن مطالبها تمثل "الناحية الثقافية في القضية الوطنية الكبرى"⁽⁹⁾. وأن "الاستعمار لم يجد منذ انتصابه من يعرقله لبلوغ مراميه إلا الجامعة الزيتونية باعتبارها تمثل العقليّة الشريفة الإسلامية التي وقفت أمام العقليّة الفرنسية متمثلة في نظام الحماية". حتى أن التحركات الاحتجاجية للطلبة الزيتونيين كانت حسب لجنة صوت الطالب الزيتوني رد فعل تجاه "انتصار الاستعمار لثقافته وتعزيز جانبيها وشد أزرها"، وهي "الثقافة المستوردة من الخارج" و"الأجنبية البحتة في توجيهها وأساليب تفكيرها، يقصد بها فيما يقصد مسخ عقولنا واستعمار أفكارنا"⁽¹⁰⁾. لم يكن الموقف من الاستعمار مجرد صراع حول مطالب مادية لتحسين ظروف معينة وإنما هو تمايز في الرؤى والثقافات واحدة شرقية عربية وإسلامية وأخرى غربية بمضامينها المسيحية كما انبثقت عن الممارسة الاستعمارية في لحظات تاريخية فارقة مثل أحداث التجنيس والمؤتمر الأفخارستي. وتجد لجنة صوت الطالب الحل في الحد من الهيمنة الاستعمارية وفي الالتزام بما تسميه الثقافة الإسلامية الحق⁽¹¹⁾. إن الخلفية الإسلامية لهوية الخطاب الطلابي الزيتوني أمر منبثق من طبيعة المؤسسة التي ينتمي إليها الطلبة الزيتونيون وهو ما ينسحب على الخلفية العروبية. ذلك أن التكوين الأساسي في التعليم الزيتوني يتضمن مثل تلك المرجعيات في الانتماء فهو تعليم يعطي قدسية كبيرة للإسلام كدين والعربية كلغة وكل العلوم الأخرى مثل التاريخ والحضارة.

ب- الاتحاد العام لطلبة تونس:

- التأسيس والتماهي:

(8) جريدة اللواء بتاريخ 10 مارس 1950 مقال لمحمد البدوي بعنوان "لولا أننا معشر الزيتونيين".
(9) انظر افتتاحية جريدة صوت الطالب الزيتوني لسان حال لجنة صوت الطالب بتاريخ 1 سبتمبر 1950.
(10) جريدة صوت الطالب الزيتوني بتاريخ 4 أكتوبر 1950. "مقال التفاوض ينحر الزيتونيين".
(11) جاء في مقال منشور في جريدة صدى الزيتونة بعنوان "بماذا استعمرونا" مؤرخ في 16 جانفي 1954 : "وما أظن أن المستبد الغاشم يبقى إلى يومنا هذا يمتص دماغنا ويشرد زعماءنا ويدوس كرامتنا لو تمسكنا بأذيال الثقافة الإسلامية الحق".

تأسس الاتحاد العام لطلبة تونس في ظرفية تاريخية عرفت حركة احتجاجية شاملة للأوساط الطلابية والتلمذية في مختلف مناطق إيالة تونس المستعمرة، استمرت ما بين 1952-1-20 و 30-4- من نفس السنة⁽¹²⁾. ولا يزال الجدل يدور في أوساط مؤرخي الفترة المعاصرة من تاريخ تونس حول الزمن الحقيقي لنشأة تلك المنظمة الطلابية. فمنهم من يرى أن الاتحاد العام لطلبة تونس قد تأسس في السرية في فيفري 1952 بتونس بدعم من الاتحاد العام التونسي للشغل وخاصة من قبل أمينه العام فرحات حشاد⁽¹³⁾. فقد انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد بحضور مجموعة من النواب قدموا من تونس قدر عددهم في حدود 15 بين تلاميذ وطلبة وقد ألقى الطالب "منصور معلى" الكاتب العام للمؤتمر التأسيسي وهو دستوري الانتماء خطابا يمكن وصفه بالسياسي في افتتاح أشغال المؤتمر أشار فيه إلى معاناة تونس بسبب ما تعيشه البلاد والشعب التونسي والشباب التونسي من أنهم ليسوا ببلدهم وأنهم تحت الرقابة الكاملة من قبل الأمن الفرنسي وهم ممنوعون من الكلمة والكتابة الحرة⁽¹⁴⁾. كما انتظم المؤتمر الثاني للاتحاد العام لطلبة تونس في كنف السرية بمقر الاتحاد العام للفلاحة التونسية يومي 14-15 جويلية 1954 بتونس⁽¹⁵⁾. وسيكون المؤتمر الثالث المنعقد أيام 26-28 جويلية 1955 بتونس العاصمة هو المؤتمر الأخير إبان الفترة الاستعمارية.

-أزمة الاتحاد العام لطلبة تونس 1971-1988-

(12)

Ayachi (Mokhtar), L'union générale des étudiants de Tunisie au cours des années 50/60, Institut supérieur d'histoire du mouvement national Tunis 2003-pp. 34-37.

Chegrouche (Tahar), *Le mouvement Etudiant Tunisien 1961-1981 Genève* (13) *d'une intelligentsia* mémoire de DEA en histoire et civilisation université de Paris VII/ juin 1983 p. 37.

انظر أيضا لنفس الكاتب "الحركة الطلابية التونسية 1945-1956 أو بحث الاتجاه الإسلامي عن الشرعية التاريخية المفقودة" مجلة أطروحات العدد التاسع - أكتوبر 1985 ص55.

Ayachi, L'union... op. cit. p. 50. (14)

Ayachi, L'union... op. cit. p. 161. (15)

.UGET congrès, 1953-1977/ centre de documentation tomes Tunis 1981.

تحليل سنة 1971 على تاريخ مميز في مسيرة الحركة الطلابية التونسية على وجه العموم والاتحاد العام لطلبة تونس على وجه الخصوص. فقد عرفت تلك السنة انعقاد المؤتمر الثامن عشر للاتحاد بمدينة قرية بالوطن القبلي في الشمال الشرقي التونسي. وتكونت في ذلك المؤتمر أغلبية من المؤتمرين من يساريين وقوميين عرب ودستوريين ليبراليين، ستمكن من تغيير موازين القوى ورفض الهيئة الإدارية المنصبة والمفروضة من قبل نائب الرئيس قبل انتهاء إشغال المؤتمر، وهو ما اعتبرته أغلبية المؤتمرين انقلاباً على أعمال مؤتمريهم مما أدى إلى تعليق أعماله وصياغة لائحة وقع عليها 107 مؤتمراً⁽¹⁶⁾. وقد رأت بعض القراءات لتاريخ الحركة الطلابية التونسية وخاصة اليسارية أن سنة 1971 تاريخاً فاصلاً بل منعطفاً مهماً في تاريخ تلك الحركة حتى أن بعض الدراسات اعتبرته ميلاداً جديداً للحركة الطلابية التونسية⁽¹⁷⁾. وهو قول قد يصدق بسبب الزخم وحركة التجديد الواسعة في صفوف الطلبة الذي تزامن مع ولادة تيارات ومجموعات سياسية طلابية في أروقة الجامعة تقاسمتها ثلاثة أيديولوجيات هي اليسارية الماركسية والقومية العربية والدينية الإسلامية بتفرعات كل واحدة منها. لقد بدأ الوضع الجديد بالفعل الطلابي المعروف بحركة 5 فيفري 1972 والمتمثلة في التجمع الطلابي الذي حضره أكثر من خمسة آلاف طالب أقرروا بأن المؤتمر 18 للاتحاد لم يمهأ أشغاله ودعوا إلى إنجاز مؤتمر خارق للعادة. بل اعتبروا تجمع الطلبة في ذلك اليوم هو انطلاقاً لفعاليات المؤتمر المنشود. ووضعت تلك الحركة مجموعة من الأهداف عملت على تحقيقها وحولتها إلى شعارات ارتبطت في أذهان الطلاب على مرّ الاجيال بشعارات حركة فيفري 1972، من أبرزها "النضال من أجل اتحاد عام لطلبة تونس مستقل حر وديمقراطي، والنضال من أجل جامعة شعبية وتعليم ديمقراطي وثقافة وطنية واعتبار الحركة الطلابية جزءاً لا يتجزأ من الحركة الشعبية"⁽¹⁸⁾. وقد استمرت التحركات طيلة عشرية السبعينات

⁽¹⁶⁾ انظر نص اللائحة والممضين عليها في مجلة أطروحات عدد 14 لسنة 1988 ملف خاص حول المؤتمر 18 الخارق للعادة للاتحاد العام لطلبة تونس بعنوان "الإنجاز" ص 38.

⁽¹⁷⁾ Marzouk (Mohsen), *Faces cachées des luttes étudiantes*, certificat d'aptitude à la recherche, Faculté des sciences humaines de Tunis 1990, p. 42.

⁽¹⁸⁾ مرزوق (محسن)، "الحركات الاجتماعية في تونس: البحث عن الغائب"، دراسة مرقونة غير منشورة، ص 10. انظر كذلك "خمسون سنة من نضال الاتحاد العام لطلبة تونس 1972-2002" دراسة مرقونة غير منشورة ص 26-36 و12ص.

وإلى نهاية الثمانينات من القرن الماضي تاريخ إنجاز المؤتمر 18 الخارق للعادة سنة 1988. وعرفت تلك الفترة تحولات هيكلية في طبيعة النشاط الطلابي⁽¹⁹⁾.

انعقد المؤتمر 18 الخارق للعادة لاتحاد العام لطلبة تونس في شهر ماي سنة 1988 بكلية الحقوق بتونس. أعدت أشغال المؤتمر جبهة من التيارات الطلابية أطلقت على نفسها "جبهة العمل الديمقراطي بالجامعة"⁽²⁰⁾. وحضر المؤتمر مجموعة كبيرة من قدماء الاتحاد ومن أنصاره من رموز الحركات السياسية اليسارية ومن الوجوه التي ستحتل أماكن مرموقة في هرم السلطة فيما بعد مثل السيد "محمد الشرفي" الذي تقلد منصب وزير التربية والعلوم ما بين 1989 و1994 في عهد الرئيس بن علي المطاح به من قبل ثورة 17 ديسمبر 14 جانفي 2011 الذائعة الصيت. ناقش المؤتمر مجموعة من اللوائح وتم إقرارها بالتصويت وهي على التوالي:

- اللائحة السياسية العامة
- اللائحة الثقافية
- لائحة الشؤون الجامعية
- لائحة فلسطين
- لائحة حركات التحرر الوطني والانعتاق الاجتماعي في العالم.
- لائحة السلم والتقدم.
- لائحة إلى المنظمات المهنية والإنسانية والثقافية
- الهوية في خطاب الاتحاد:
- الوطنية والتونسية:

Chegrouche, ... op. cit. pp.51-52

⁽¹⁹⁾ الكيلاني (محمد)، "التيارات السياسية والفكرية وعلاقتها بالاتحاد العام لطلبة تونس"، الطريق الجديد عدد 17 مارس 1999 ص 15.

⁽²⁰⁾ انظر بيان جبهة العمل الديمقراطي بالجامعة، مجلة أطروحات عدد 14... مرجع سابق ص 40.

لقد اختلف تمثل الاتحاد العام لطلبة تونس لمسألة الهوية من فترة تاريخية إلى أخرى. ففي المرحلة الأولى من تأسيس الاتحاد في منتصف السنوات الخمسين من القرن الماضي ربط الاتحاد الوطنية والتونس بالاستقلال. ففي المؤتمر الأول للاتحاد المنعقد بباريس في جويلية 1953 برز مطلب الاستقلال الذي اعتبره المؤتمرون وحده " بإمكانه أن يوفر لشبابنا التعليم الديمقراطي والثقافة الوطنية التي يطالب بها وبلادنا مستقبل الحرية والازدهار التي من أجلها نكافح". وقد ربط المؤتمرون أيضا بين الاستقلال السياسي ونظيره الاقتصادي. " هذا الاستقلال سياسي بالتأكيد ولكنه استقلال اقتصادي وتقدم اجتماعي وبين الاستقلال السياسي والمطلب القديم المتمثل في إقامة جمعية وطنية ذات سيادة تكون منتخبة انتخابا عاما مباشرا وحكومة مسؤولة أمامها" كما جاء في إحدى أهم الوثائق المتعلقة بالاتحاد⁽²¹⁾، مستبظنا في الآن نفسه موقفا سلبيا من النظام الملكي وتأييدا لإقامة نظام جمهوري⁽²²⁾.

واحتل الاهتمام بالدستور مراتب ذات أهمية في نشاط المنظمة الطلابية منذ انتخاب المجلس التأسيسي الأول سنة 1956 من أجل انجاز تلك المهمة. وعلى الرغم من أن دستور 1959 لم يستجب لكثير من مطالب المنظمة الطلابية وخاصة تصورهم للدستور الديمقراطي. إلا أن المنظمة في مؤتمرها السابع المنعقد في صيف 1959 ثمنت ذلك الدستور واعتبرت صدوره "حدثا تاريخيا يسجل بكل فخر في عهد الحكومة الشعبية"، معتبرين أن المبادئ التي تضمنها هي مبادئ ديمقراطية تضمن للمواطن الحرية الفردية والجماعية⁽²³⁾.

المسألة الوطنية الثانية التي ستجد المنظمة الطلابية نفسها في مواجهتها والتي لا تقل أهمية عن قضايا الاستقلال والدستور هي إصلاح التعليم وخاصة وضع اللغة كما جاء على لسان احد القيادات الطلابية: " البيداغوجيا الحديثة تنص على أن اللغة الأم وحدها

(21) UGET congrès 1953-1977 CDN T1 Tunis 1981 P 43-45.

(22) ضيف الله (محمد)، "الطلبة التونسيون والمسائل الوطنية 1955-1956"، ضمن أعمال الندوة

الثانية عشر للمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية تونس ماي 2006-ص 5.

(23) ضيف الله، "الطلبة التونسيون والمسائل الوطنية..."، نفس المرجع، ص 7-8.

يجب أن تُعَلَّم في المرحلة الابتدائية⁽²⁴⁾. كما تضمن الميثاق المطلبي للمؤتمر في احد نقاطه حول التعليم ما يلي:

- توحيد التعليم وذلك طبقا لمبدأي التعريب وتكييف البرامج مع الواقع التونسي وأن تكون العربية لغة التدريس الوحيدة في التعليم الابتدائي⁽²⁵⁾.

استمرت تلك المطالبة في صيغ مختلفة أثناء المؤتمرات القادمة للاتحاد لاسيما تلك التي أنجزت قبل الإصلاح التربوي الهام والتاريخي لسنة 1958 مع بعض الإضافات مثل تونسنة التعليم الذي لا يعني ضرورة التراجع عن مطلب التعريب لصالح التونسية.

ولتجسيد تلك الخيارات عمليا دعت المنظمة الطلابية سلطة الإشراف إلى تشريكها في صياغة التصور الإصلاحي للتعليم عبر تشكيل "لجنة قومية" تضم مختلف "المنظمات القومية"، طالب بها المؤتمر السادس للاتحاد المنعقد في أوت سنة 1958، لتعمل على وضع برنامج لتحرير هيكل التعليم يركز على المبادئ التي نادى بها الاتحاد وهي التعليم والتونسنة والتعريب والتشجيع على التعليم العالي عبر بعث الجامعة التونسية⁽²⁶⁾. إلا أن التحولات السياسية العميقة التي عاشتها المنظمة الطلابية بفعل سيطرة العنصر اليساري والقومي العربي بداخلها منذ أواسط الستينيات وتراجع العنصر الدستوري المنتمي الى الحزب الحاكم والذي بات يقوم بدور هيمني استبدادي في الدولة ويمنحها الكوادر سيطرح مفهوما جديدا للشرعية يوازيه تصورا مختلفا لقضايا الهوية والانتماء⁽²⁷⁾.

⁽²⁴⁾ UGET , congrès T1, op. cit. p. 5.

⁽²⁵⁾ المرجع نفسه، ص 26-30.

⁽²⁶⁾ توصيات ولوائح مؤتمر الاتحاد العام لطلبة تونس- لائحة التعليم نشرت بجريدة الصباح في 20 أوت 1958.

⁽²⁷⁾ الشرفي (منير)، وزراء بورقبيبة، مطبعة تونس قرطاج بدون تاريخ ص 18.

من الكتاب العامين للاتحاد الذين تولوا مناصب وزارية منصور معلى، عبد المجيد شاكر، الطاهر بلخوجة، المنجي الكعلي، محمد الصياح.

M.F "Qu'est-ce que l'UGET", Jeune Afrique, n°300/9 octobre 1966, p. 4.

انظر كذلك ضيف الله (محمد)، "الحركة الطلابية التونسية بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني 1956-1977"، ضمن المدرج والكرسي، نفس المرجع، ص 137.

فقد أدت الهيمنة الدستورية المطلقة على المنظمة النقابية وما آلت إليه سنة 1971 من فقدان كامل للشرعية بل وإلى عطالة كاملة في مستوى الفعل النقابي بسبب الصراع العميق الذي شهده المؤتمر 18، أدى إلى بروز خطاب جديد للتونس والوطنية. فبعد أن كان ذلك الخطاب لا يرى معنى للوطنية خارج الحزب الدستوري الحاكم الذي استمد شرعيته من دوره في الحركة الوطنية وفي الاستقلال سنة 1956، سيتحول الانتماء إلى الدستور الجديد والولاء " للدولة الوطنية" إلى نوع من الخيانة الوطنية في الخطاب الطلابي عموماً والخطاب النقابي منه. برز ذلك الاتجاه في خطاب المجموعات الطلابية التي نشطت في الوسط الطلابي منذ منتصف الستينات من القرن الماضي بالتوازي مع المنظمة النقابية الطلابية. (28).

إن مثل ذلك الخطاب لا يدع مجالاً للشك في تحول الخطاب إلى نقيضه بصفة عميقة، أي اعتبار الحزب الدستوري الأعلى وطنية باعتبار دوره الجذري في الحركة الوطنية خائناً وعميلاً وهو الساهر على مصالح الأعداء وموظفاً الدولة لهذا الغرض. ولكن ذلك الخطاب الطلابي المغرق في التخوين كان يقابله خطاب مماثل من قبل الحزب الدستوري الحاكم نفسه كثيراً ما يؤدي إلى تتبع الطلاب وقمع انشطتهم ومحاكمتهم وطردهم تعسفياً من دراستهم وملاحقتهم (29).

لقد انعكس خطاب القطيعة على إعادة بعث "الاتحاد العام لطلبة تونس" باعتبار أن الجزء الأكبر من المجموعات الطلابية الحاملة لذلك الخطاب شكلت العمود الفقري للاتحاد العام لطلبة تونس في صيغته الجديدة بعد المؤتمر 18 الخارق للعادة المشار إليه. فقد جاء في الفقرة الأولى من بيان "جبهة العمل النقابي الديمقراطي بالجامعة" المتكونة في غالبيتها من مجموعات يسارية ماركسية "التزامنا واعتزازنا بنضالات الجماهير الطلابية وأجيالها المتعاقبة، واعتبارنا لبرنامج 1973 وتجربة الهياكل النقابية المؤقتة وما قدمه ويقدمه قداماً مناضلي الحركة الطلابية من دراسات وتوصيات جزءاً

(28) وثيقة غير منشورة بعنوان الحركة للطلابية في تونس تاريخها واقعا وأفاقها بإمضاء مجموعة طلابية تدعى مناضلون وطنيون ديمقراطيون. الوثيقة غير محددة التاريخ ولكن يبدو أنها صيغت سنة 1986 حسب الأحداث التي تضمنتها.

(29) Parti Socialiste Destourien, La vérité sur la subversion à l'université de Tunis, Août 1968, pp. 22-27.

من خبرة الحركة مع اعتقادنا أن برنامج الأطراف النقابية في الجامعة وخاصة منها اليسار النقابي الديمقراطي والأطراف السياسية التقدمية أوراق أساسية لا بد من اعتمادها والاستفادة منها وتطويرها حسب مقتضيات الوضع الراهن وخياراتنا العملية". إن هذا الموقف الذي يؤكد على "الإرث الطلابي النضالي" يحتوي ضمناً موقفاً من السلطة السياسية ومدى شرعيتها بل ومدى وطنيتها وهو موقف سيعبر عنه بصيغة أخرى من نفس البيان في فقرته الثالثة قائلاً: "اعتبارنا جزءاً من الحركة الشعبية المعادية للصهيونية والإمبريالية والرجعية العربية"⁽³⁰⁾. لا شك أن السلطة الحاكمة في تونس لحظة كتابة البيان كانت تصنف ضمن "الرجعية العربية المعادية للحركة الشعبية"، وإن مثل تلك المواقف تجاوزت مجرد الاختلاف مع السلطة إلى نوع من التطرف الذي أنتج ذلك العداء خاصة في المرحلة الأخيرة من الحكم البورقيبي، الذي رفض بدوره التعامل معها ومنحها من الامتيازات المادية والمعنوية التي كانت تحصل عليها أيام سيطرة الطلبة الدستوريين في النصف الثاني من الخمسينات وطيلة عشرية الستينات وحل محل ذلك القمع والحرمان والتتبع العدلي والتجنيد القسري⁽³¹⁾.

- الانتماء المغربي والعربي:

- الانتماء المغربي:

تجدر الإشارة في البداية إلى أن الانتماء المغربي قد شكل بعداً رئيسياً في توجهات الاتحاد العام لطلبة تونس، حتى أن نشأته غلب عليها ذلك الانتماء. فالمعروف في تلك

⁽³⁰⁾ انظر نص البيان في أطروحات العدد الرابع عشر... نفس المرجع، ص 40. تشكلت تلك الجبهة من المجموعات الطلابية الثانية: الوطنيين الديمقراطيين بالجامعة، الطلبة الشيوعيون، النقابيون الوطنيين، النقابيون الثوريون.

⁽³¹⁾ العربي (البشير)، "الحركة الطلابية وتأثيرها في الحياة السياسية والاجتماعية في العشرية الأخيرة من حكم بورقيبة لتونس"، ضمن أعمال المؤتمر الخامس حول نهاية حكومة بورقيبة والقيادات السياسية العربية بين الصعود والانحدار منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ومؤسسة كونراد أديناور مارس 2005 ص 192. انظر المقال الهام ل المستغانمي (محمد فوزي) من الجامعة إلى رجيم معنوق: رحلة الجحيم، ضمن مجلة أكاديميا، منشورات جامعة منوبة عدد 25 جانفي 2014 ص 26-29. أنظر كذلك مقال كرونة (خالد) التجنيد الاجباري برجيم معنوق، ضمن نفس المرجع ص 30 -

النشأة أن المؤتمر التأسيسي للاتحاد قد عقد بمقر جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين في باريس سنة 1953 وقد كان لتلك الجمعية كأول تنظيم طلابي مغربي موجود منذ نهاية العشرينيات من القرن العشرين، دور فاعل في نشأة الاتحاد العام لطلبة تونس وتكوين الكثير من الكوادر التي ستنشغل لاحقا في هرم مؤسسة الحكم في تونس وفي البلدان المغاربية الأخرى⁽³²⁾.

لقد جسد الاتحاد العام لطلبة تونس انتماءه المغربي مباشرة مع عقد أول مؤتمر علني له في تونس وهو المؤتمر الثالث الذي انعقد بالحي الزيتوني (المعهد العالي للعلوم الانسانية حاليا) في تونس في أواخر شهر جويلية 1955، عبر دعوة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي لم يتم بعثه إلا قبل ذلك الموعد بأيام قليلة أي يوم 8 جويلية من تلك السنة. لقد كانت القضية الجزائرية من ابرز القضايا التي ستحتل مركز اهتمام المنظمة النقابية للطلابية التي نظمت في مختلف أنحاء البلاد أياما للتضامن مع الشعب الجزائري المناضل. وهو ما سيتحول إلى سنة يمارسها الاتحاد سنويا قبل استقلال الجزائر سنة 1962 من خلال تنظيم الندوات والمهرجانات الخطابية المؤيدة للثورة الجزائرية التي كثيرا ما يشارك فيها قادة الحركة الوطنية. كما أن قياديين من المنظمين الطلابيين كثيرا ما يعقدون تجمعات خطابية تضامنية مشتركة وزيارات للجانين الجزائريين في المناطق الحدودية تعبيراً عن تضامن الشباب الطلابي في البلدين. تضمنت الأسابيع التضامنية المقامة من قبل الاتحاد العام لطلبة تونس أو بالتنسيق مع المنظمة الطلابية الجزائرية أشكالاً من النضال وصلت في بعض الأحيان إلى إضرابات الجوع التي كانت تشهدها باحة الجامع الأعظم. وتكتفت الحركة التضامنية مع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بعد منعه من قبل الإدارة الاستعمارية في الجزائر سنة

⁽³²⁾ لقد ضمت الحكومة التي شكلها الطاهر بن عمار في صانفة 1954 في تونس كلا من الصادق المقدم وزير العدلية والهادي نويرة وزير التجارة والطاهر الزاوش وزير الصحة والمنجي سليم وزير دولة كما ضمت الحكومة الائتلافية الأولى في المغرب التي تشكلت يوم 9 ديسمبر 1955 بعض الأسماء مثل أحمد بلافريج ومحمد الفاسي وعبد القادر بن جلون، وهم جميعاً من قيادات جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين في الثلاثينات من القرن الماضي. انظر ضيف الله (محمد)، "في علاقة الطلبة التونسيين بجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين من الزاوية التونسية 1953-1971"، ضمن المدرج والكرسي...، نفس المرجع، ص 114-115.

1958 من خلال أشكال احتجاجية مختلفة كان أهمها التجمع التضامني في الذي نظمته مختلف التنظيمات الوطنية يوم 1 فيفري من نفس السنة (33).

وفيما يتعلق بالعلاقة مع المغرب فإن المؤتمر السادس للاتحاد العام لطلبة تونس قد دعا الاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي تأسس في أواخر شهر ديسمبر 1956، إلى حضوره وهو الذي انعقد في تونس في منتصف شهر أوت من سنة 1958. وعلى خلاف الاتحادين السابقين فإن تجربة المنظمة الطلابية المغربية تميزت بولادتها غداة إعلان استقلال المغرب.

إن حضور المنظمة الطلابية التونسية والجزائرية مؤتمر التأسيس المغربي مكن المنظمات المغربية الثلاث من تنظيم ندوة في 1 جانفي 1957 لدراسة فكرة بعث "كفدرالية طلبة شمال إفريقيا" التي سرعان ما انعقد مؤتمرها الأول أيام 20-23 أوت 1958 وأنشأت لها " كتاباً دائماً للتضامن بين الحركات الطلابية في شمال إفريقيا وذلك تجسيدا لما أعلن على هامش انعقاد المؤتمر السابع للاتحاد العام لطلبة تونس. لقد أقر ممثلو المنظمات الطلابية المغربية الثلاثة أن تأسيسهم لتلك الكفدرالية هو خطوة على درب تحقيق الوحدة المغربية يجب دعمها بتوحيد المنظمات النقابية الطلابية. عقدت الكفدرالية المغربية للطلبة عدة مؤتمرات فكان المؤتمر الثاني سنة 1960 والمؤتمر الثالث سنة 1964. وعدة ندوات وملتقيات مثل ملتقى الأسس الاقتصادية لوحدة المغرب العربي في أبريل 1962. كما كانت للاتحادات المغربية تمثيلية مشتركة عن طريق الكفدرالية في كثير من التظاهرات الدولية وفي مؤتمرات الاتحاد الدولي للطلاب لاسيما المؤتمر السابع المنعقد في الصين سنة 1958 (34).

لا شك أن النشاط الطلابي المغربي قد تأثر إيجابيا بخيارات الحركات الوطنية في الأقطار المغربية تونس والجزائر والمغرب المجتمعة في طنجة سنة 1958 والتي أعلنت أنها تعمل من أجل وحدة المغرب العربي. لكن عدم جدية الفعل الوحدوي المغربي بين الدول المغربية سيؤثر على محصلة ذلك الفعل في مستواه الطلابي حتى أنه شهد عملية

(33) Ayachi, L'union ... op. cit. pp. 95-96.

(34) ضيف الله، "يوميات الحركة الطلابية التونسية 1901-1971"، ضمن المدرج والكرسي...، نفس المرجع، ص 155-156.

انحسار إبان فترة الستينات بسبب تعمق الصراعات داخل الاتحاد العام لطلبة تونس وخارجه في الفضاء الطلابي بين مختلف التيارات الطلابية وطلبة الحزب الحاكم. ومباشرة بعد تعليق أعمال المؤتمر الثامن عشر سنة 1971 ستنتج المجموعات الطلابية التي باتت تشكل بديلا للمنظمة النقابية الطلابية فكرا معاديا للهوية المغاربية والوحدة المغاربية معتبرة إياها مشروعا استعماريا لا غير وستتحول تلك الهوية من الخطوة إلى التهميش في الخطاب الطلابي عموما. وكذلك سيكون الأمر في الخطاب النقابي الذي أنتجه الاتحاد العام لطلبة تونس في مؤتمراته منذ انعقاد المؤتمر 18 الخارق للعادة سنة 1988 حيث لا تشير لوائح ذلك المؤتمر إلى البعد المغاربي ولا تثمنه مثلما تثمن البعد العربي..

- الانتماء العربي:

على عكس الانتماء المغاربي بدأ الانتماء العربي في خطاب الاتحاد العام لطلبة تونس وفي تجربته محتشما ومحدودا بل ومنغلقا. بعض الدراسات تبرر ذلك بضعف التجربة الطلابية النقابية وغياب الاتحادات الممثلة للطلبة التي كثيرا ما تحل محلها الانتماءات الحزبية التي فرضها سياق سياسي- تاريخي اتسم بسيطرة الحزب الواحد على السلطة⁽³⁵⁾. وهذا الأمر لا يخفى بالتمثيلية لدى عموم الطلبة، وهو ما أشار إليه الكاتب العام للاتحاد العام لطلبة تونس سنة 1959-1960 بقوله " في جميع مؤتمراتنا عبرنا عن إرادتنا الصادقة في إنجاز مؤتمر للطلاب العرب يركز على مقياس التمثيلية الحقيقية للحركة الطلابية العربية. لقد كنا دائما نحرض رفاقنا الطلاب من الدول العربية على تكوين اتحادات وطنية تجمع طالب كل بلد"⁽³⁶⁾. وعلى الرغم من انتظار الاتحاد بعض السنوات ليبدأ تعاونه مع بعض المنظمات الطلابية العربية، فإنه من الضرورة الإشارة إلى أن اتحاد الطلبة المصريين سابق في نشأته على الاتحاد العام لطلبة تونس حيث ترجع تلك النشأة إلى بداية عشرية الثلاثينات من القرن الماضي. لكن الارتباط العضوي بين المنظمة النقابية الطلابية وكل من الحزب الدستوري الحاكم والسلطة في تونس كانت طيلة الفترة الممتدة من التأسيس إلى نهاية الستينات محكومة بالخلفية

⁽³⁵⁾ Ayachi, L'union ... op. cit. pp. 99.

⁽³⁶⁾ Kooli (Mongi), "Qu'est ce que l'UGET" in L'Etudiant Tunisien nouvelle Série numéro d'août 1960.

السياسية لذلك الحزب والسلطة من المشرق العربي عموماً ومصر ونظامها الناصري على وجه الخصوص وذلك لفترات طويلة من تلك المرحلة بسبب تأييده لخصوم بورقيبة وخاصة " صالح بن يوسف" زعيم المعارضة الراديكالية ذاتالتوجه العروبي وتنظيم "الأمانة العامة" الذي يقوده . لم يكن الاتحاد العام لطلبة تونس بمنأى عن تلك الصراعات السياسية التي حكمت هرم الدولة بل كان يتبنى موقفها بالكامل من مختلف القضايا العربية لاسيما القضية الفلسطينية التي لم يتأخر الاتحاد في إعلان مساندته لموقف الرئيس بورقيبة في خطابه في أريحا سنة 1965. وهو الموقف الذي لم يكن يخفى بموافقة القاعدة الطلابية التي تظاهرت تلقائياً وشاركت في الأعمال الاحتجاجية التي أدت إلى حرق بعض السفارات الغربية المؤيدة لدولة "اسرائيل" الصهيونية. كل ذلك تم سنة 1967 خارج أطر الاتحاد على أثر عدوان الدولة العبرية على مصر والدول العربية المجاورة واحتلال ما تبقى من أراضي فلسطين مما أدى إلى عديد الاعتقالات والمحاكمات كان أبرزها الحكم على الطالب "محمد بن جنات" ب 20 سنة أشغالاً شاقة وهو ما حوله إلى رمز كاريزمي احتفظت له الذاكرة الطلابية بأعمال بطولية ويات موضوع تجمعات طلابية وأعمال احتجاجية تطالب بإطلاق سراحه مثلما نادى بذلك مؤتمر قابس للاتحاد المنعقد في صيف سنة 1967 والتجمع الطلابي المنعقد في 15 مارس 1968. لقد أدت تلك التحركات إلى تجاوز الجمهور العريض للاتحاد الطلابي في مستوى التضامن المعلن مع القضية الفلسطينية مما جعل الاتحاد يحاول تدارك الموقف عبر تنظيم أسبوع فلسطين في أروقة الجامعة التونسية ما بين 10 و15 مارس 1969. لكن ذلك لن يجدي في إعادة جمهور الطلبة إلى حظيرة الاتحاد الذي يعاني من انقسامات في داخله بسبب تسرب المجموعات الطلابية غير الدستورية إلى هياكله وبسبب عدم استقلالية مواقفه عن السلطة والحزب الحاكم. لقد وصل الاحتجاج الطلابي أوجه على موقف السلطة والحزب يوم 9 فيفري 1970 عند زيارة وزير الخارجية الأمريكي "وليام روجرز" إلى تونس فقد شارك ما بين 5 و6 آلاف طالب في تجمع عام انتظم في بورصة الشغل في ذلك التاريخ احتجاجاً على تلك الزيارة وتضامناً مع الشعب الفلسطيني⁽³⁷⁾. وتحولت القضية الفلسطينية إلى قضية مركزية في الخطاب الطلابي طيلة الفترة التي شهدت تعليق أعمال المؤتمر 18 وحتى استئناف أعماله في صيغته

(37) ضيف الله، "يوميات..."، نفس المرجع، ص 158-161.

الخارقة للعادة سنة 1988. ولم تكن اللائحة السياسية العامة في فقرتها الثالثة بعنوان "المستوى العربي" سوى استجابة لإرث كبير من الفعل الطلابي حول القضية الفلسطينية راكمته المجموعات الطلابية طيلة 17 سنة من عملها في ظل غياب المنظمة الطلابية. جاء في تلك اللائحة "يعاني الوطن العربي من الاستعمار المباشر حيث مازالت تروح أراضيها في فلسطين ولواء الإسكندرونة وعريستان وسبتة ومليلة... الخ تحت الاحتلال الأجنبي... إن الحركة الطلابية في تونس... تؤكد انتماءها القومي وحملها لهماوم الجماهير العربية المسحوقة عبر:

- التزامها بالنضال من أجل تحرير كافة الأراضي العربية المسلموة.

- إن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية لحركة التحرر العربي والمؤتمر الثامن عشر الخارق للعادة يعلن وقوفه إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني وخيار الكفاح المسلح ورفضه لكل مشاريع الاستسلام للامبريالية والصهيونية والرجعية⁽³⁸⁾.

لقد إنقلب الشيء إلى ضده في خطاب الاتحاد العام لطلبة تونس فمن موقع التهميش الكامل للقضايا العربية بما في ذلك القضية الفلسطينية بات الخطاب يستمد شرعيته من تلك القضية ومن ذلك المستوى من الانتماء. إن الهوية بهذا المعنى تصبح قابلة للتحويل والانزياح بمجرد تغيير السياقات التي تحتضنها الظاهرة. لقد أدى ذلك الانزياح في الموقف إلى تشكيل الاتحاد العام لطلبة تونس "لجنة فلسطين الدائمة" للاتحاد وهي الفكرة التي كان أصدرها المؤتمر 18 الخارق للعادة وأقرتها الهيئة الإدارية المنعقدة في خريف 1988. كما انظم الاتحاد إلى اللجنة المعروفة باسم لجنة 8 ديسمبر لمنصرة الشعب الفلسطيني التي كانت شكلت من قبل بعض منظمات المجتمع المدني، والتي أحييت ذكرى العدوان الصهيوني على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في حمام الشط. ولم يكتمل الاتحاد بكل ذلك وإنما جعل ضمن أهدافه الواجبة التحقيق دعم الانتفاضة

⁽³⁸⁾ انظر اللائحة السياسية العامة للمؤتمر 18 خارق للعادة ضمن وثائق ولوائح المؤتمر مجلة أطروحات عدد 14 ص 45.

الفلسطينية المندلعة سنة 1987 المعروفة بالانتفاضة الأولى ، وذلك بالتعاون مع الأوساط الطلابية العربية وخاصة اتحاد الطلاب العرب (39).

- الاتحاد العام لطلبة تونس والموقف من الدين:

لقد نص البند الأول من النظام الأساسي للاتحاد العام لطلبة تونس في صيغته الأولى في بداية الخمسينات من القرن العشرين أنه يمنع على نفسه كل مناقشة سياسية أو دينية. وفي حين أهمل الشطر الأول من ذلك البند إهمالا تاما فإن الشطر الثاني منه المتعلق بالدين وقع الالتزام به التزاما حرفيا. فقد غابت أية إشارة إلي الدين سواء في الصحافة الطلابية أو في مختلف اللوائح التي صادقت عليها مؤتمرات الاتحاد. لا شك أن ذلك لا يخلو من خلفية لائكية بهدف تجاوز الخلافات والفروقات بسبب الدين أو المذهب داخل الاتحاد. وقد جاء في إحدى لوائح المؤتمر الأول للاتحاد أن لا مجال لوجود تعصب ديني أو كره للأجانب في تونس. إن هذا الموقف لا يستهدف طمأنة الأجانب ومن ذلك الطلاب فقط وإنما يهدف إلى جلب الطلبة غير المسلمين إلى حظيرة الاتحاد سواء منهم الفرنسيين المقيمين بتونس أو اليهود. وربما في هذا الإطار يمكن أن نفهم النداء الذي احتوته اللائحة العامة للمؤتمر الثاني للاتحاد بعنوان نداء إلى مواطنينا الطلبة الإسرائيليين(40). لكن ذلك الخطاب اللائكي لا يمكن عزله عن النخبة السياسية التي حكمت تونس بداية من سنة 1957 وهي نخبة في غالبيتها من خريجي الجامعات والمدارس الفرنسية وهي متأثرة بالنظام السياسي الفرنسي ذي الطابع العلماني. كما أن "بورقيبة" رئيس الحزب الدستوري الجديد الحاكم آنذاك ورئيس الدولة له مواقف من الدين تضع في غالبيتها الدين في موضع الدونية(41). وهو ما تشترك فيه معه النخبة الطلابية المسيطرة على الاتحاد في الخمسينات والستينات. وقد استمر الأمر على نفس الشاكلة مع التحول الذي طرأ على الاتحاد بعد مؤتمره الثامن عشر الخارق للعادة بكلية الحقوق سنة 1988 وما تلا ذلك حيث سيطرت على المنظمة النقابية الطلابية مجموعات اليسار

(39) انظر مقالا بعنوان "الأمين العام للاتحاد العام لطلبة تونس في ضيافة العقيد معمر القذافي"، مجلة المغرب العربي، عدد 4/125 نوفمبر 1988 ص26.

(40) ضيف الله (محمد)، "الطلبة والدين في تونس في الستينات"، دراسة غير منشورة ص3.

(41) الهيئة (محمد الحبيب) بورقيبة والاسلام ، ضمن بورقيبة والبورقيبيون وبناء الدولة الوطني، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان - تونس 2001 ص 179 - 184

الطلابي التي تحتكم على تنوعها إلى خلفية أيديولوجية كان أسس لها منظرها "كارل ماركس" تعتبر أن "الدين أفيون الشعوب" وبالتالي خلت جميع النصوص والوثائق واللوائح الصادرة عن مختلف المؤتمرات إلى أي إشارة للمسألة الدينية إلا في حدود إدانة ما تسميه تلك الوثائق التيار الطلابي أو الرجعي نسبة إلى الاتجاه الإسلامي (42). وهو خطاب ظهر بكثافة طيلة عشرية السبعينات والثمانينات من القرن الماضي مع انتشار حركة الاتجاه الإسلامي التي عرفت لاحقاً بالنهضة، في أروقة الجامعة وعاد إلى البروز بالرغم من غياب تلك الحركة على الفضاءات الجامعية منذ مطلع التسعينات تاريخ الصراع العنيف بين تلك الحركة والسلطة قبل استئناف نشاطها بعد انهيار النظام في 14 جانفي 2011.

إلا أن اللافت للانتباه في تجربة الاتحاد العام لطلبة تونس مع الدين عموماً هو ربط تلك المسألة بصراعه مع الطلبة الإسلاميين ومنظمتهم النقابية التي أنشأت سنة 1985 واستمرار نفس تلك الحلفية طيلة الحقبين الاستبداديتين اثناء حكمي بورقيبة وبن علي وكذلك بعد سقوط نظاميهما من قبل الثورة التونسية، دون الأخذ بعين الاعتبار المكانة التي يحتلها الإسلام في الوعي الطلابي باعتباره جزءاً من شخصيتهم ومن هويتهم هذا ناهيك أن الاتحاد العام لطلبة تونس وكافة المنتمين إليه لا يمثلون إلا أقلية مقارنة بعموم الطلبة وهو ما يقتضي طرح السؤال حول مصداقية تمثيلية الاتحاد لأولئك الطلاب الذين باتوا يعدون بمئات الآلاف بعد أن كان عددهم لا يتجاوز عدة مئات عشية نشأة الاتحاد العام لطلبة تونس.

ج- الهوية في خطاب الاتحاد العام التونسي للطلبة :

(42) جاء في مقال بعنوان "رسالة في نبذ الفكر الظلامي ونصرة الديمقراطية والتقدم" لنائب الأمين العام للاتحاد العام لطلبة تونس/ مؤتمر التصحيح الطالب "علي الفلاح" نشرت في نشرة الطالب التونسي عدد صادر في شهر فيفري 2007 ما يلي:.... إنني إذ أتوجه إليكم بهذه المراسلة للتنبية بخطورة انتشار الفكر السلفي الظلامي بينكم..الخ"،

".. تكرر في الآونة الأخيرة الاعتداء بالعنف على مناضلات ومناضلي الاتحاد الحركة الطلابية بكلية للعلوم القانونية والسياسية والاجتماعية بتونس من قبل ثلة من الطلبة اختاروا التستر بالدين لنشر أفكارهم الظلامية والرجعية المتخلفة، خدمة لمصالح سياسية معادية للقيم الجامعية والمدنية...الخ.

تجربة الاتحاد العام التونسي للطلبة هي تجربة قصيرة لم تتجاوز الست سنوات قبل ان يقع استئناف نشاط المنظمة النقابية التي وقع حلها سنة 1991 لتستأنف نشاطها بعد قيام الثورة التونسية سنة 2011⁽⁴³⁾. الفكرة وليدة منابر الاتجاه الإسلامي او حركة النهضة لاحقاً" وهياكله وتنظيماته. فكرة قديمة فحواها إنشاء منظمة طلابية نقابية جديدة والقطع مع المنظمة النقابية المعطلة عن العمل منذ سنة 1971 تاريخ تعليق المؤتمر 18 للاتحاد العام لطلبة تونس. التأسيس شعار أصبح قابلاً للتحقيق لما تحولت الحركة الإسلامية من موقع البحث عن مكان داخل أروقة الجامعة إلى تشكيل قوة لا يستهان بها قادرة على مقارعة التيارات التاريخية في الحركة الطلابية الدستورية ثم اليسارية الماركسية ثم القومية العربية. إن فكرة إنجاز المؤتمر 18 بالتالي إحياء مسيرة الاتحاد العام لطلبة تونس فكرة متروكة لأصحابها بسبب الإرث الدستوري لذلك الاتحاد وما نتج عنه من فقدان الشرعية كما وصفته إحدى الدراسات جاء فيها "إن تاريخ الحركة الطلابية يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الاتحاد لم يستمد في يوم من الأيام من تاريخه شرعية تواجهه من الجماهير بقدر ما استمدها من حزب الدستور وأسياده الاستعماريين مما جعل كل مؤتمراته لأغية ولا شرعية بالنسبة للحركة الطلابية وليس مؤتمر قرية 1971 فقط..."⁽⁴⁴⁾. لقد حُسم الموقف داخل حركة الاتجاه الإسلامي، ولتحويله إلى شرعية مستمدة من الطلاب عقد طلبة الحركة الإسلامية تجمعا يوم 15 مارس 1985 بكلية الحقوق بتونس حضره 16 ألف طالب بما نسبته 53% من مجموع الطلبة الدارسين بمختلف الجامعات التونسية آنذاك حسب مصادر المنظمة النقابية المحدثة، طالبوا فيه بعقد مؤتمر عام لحسم الخلاف النقابي⁽⁴⁵⁾. انعقد ذلك المؤتمر بتاريخ 18-19 أبريل 1985 بكلية العلوم بتونس وانبثق عنه الاتحاد العام التونسي للطلبة المنظمة الطلابية التي حسم الموقف لصالح انبعاثها من قبل أغلبية المؤتمرين ونسبتهم 185 مقابل 25 صوت وقد حسم ذلك الأمر عن طريق استفتاء أجري في بداية أشغال المؤتمر التأسيسي

⁽⁴³⁾ انظر مقال الاتحاد العام التونسي للطلبة يعود الى الساحة الطلابية على الرابط

<http://www.turess.com/dimaonline/604>

⁽⁴⁴⁾ انظر "مشروع رؤية في المسألة النقابية يقدمها الاتجاه الإسلامي في الحركة الطلابية" دراسة غير

منشورة ص 33.

⁽⁴⁵⁾ مطوية بعنوان "الاتحاد العام التونسي للطلبة في سطور اختزال التجربة والانطلاق نحو المستقبل"

فقرة بعنوان محطات مضيئة

لنتلك المنظمة⁽⁴⁶⁾. جاء في تعريف الاتحاد في الفصل الأول من قانونه الداخلي ما يلي:
"الاتحاد العام التونسي للطلبة منظمة شبابية طلابية ديمقراطية تعمل باستقلالية عن كل
التنظيمات السياسية وتستمد شرعيتها من إرادة قواعدها الذين لهم وحدهم حق تحديد
برامجها وتوجهاتها ومواقفها". لقد عقد الاتحاد ما بين تاريخ تأسيسه سنة 1985 وحله
سنة 1991 أربع مؤتمرات. فبالإضافة للمؤتمر التأسيسي، انعقد المؤتمر الوطني الثاني
بكلية العلوم والطب بتونس في 17-18 ديسمبر 1986، المؤتمر الوطني الثالث بكلية
الحقوق بتونس في 20-23 جانفي 1989 لتنتهي سلسلة المؤتمرات القصيرة بانعقاد
المؤتمر الوطني الرابع للاتحاد في 11/30 ، 1 و 2 ديسمبر 1990 دون تحديد
مكانه⁽⁴⁷⁾. وربما يعود ذلك إلى اختيار السرية في نشاطه بعد المصادمات التي بدأت
تبرز أولى تجلياتها بين حركة النهضة والسلطة والتي انتهت بسحب التأشيرة القانونية
للاتحاد ومنعه من النشاط.

لقد صادقت الهيئة الإدارية للاتحاد على وثيقة أطلقت عليها تسمية الميثاق الجامعي
بتاريخ 1 نوفمبر 1986 وأقرها المؤتمر الثاني للمنظمة النقابية السالف الذكر. وتكمن
أهمية الوثيقة في كونها مصدرا يمكن اعتماده في معرفة المنظمة الطلابية لمسألة الهوية
في ظل غياب ووثائق من نصوص ولوائح وبيانات ودراسات متعلقة بهذا الموضوع. جاء
في مقدمة نص الميثاق "...أمام تحديات جسيمة تفرض عليها تحمل مسؤوليتها التاريخية
أكثر من أي وقت مضى(المقصود الحركة الطلابية) دفاعا عن حرية شعبنا وكرامته
وهويته الثقافية والحضارية.."، "...من أجل الدفاع عن المؤسسة الجامعية ورسالتها
العلمية والحضارية في إطار النضال الشامل من أجل التحرير الكامل لأمتنا". إن أولى
الملاحظات التي تشد الانتباه هو استعمال كلمتي شعبنا وأمتنا في تلك المقاطع وربطها
بالهوية الثقافية وبما هو حضاري وهو ما يعطي الانطباع بأن تلك المصطلحات مبهمة
إلى حد ما. فلم توضح الوثيقة بعد ما هو الشعب الذي تتحدث عنه وما المقصود بأمتنا
هل هي "الأمة التونسية" أم "العربية" أم "الإسلامية". ستبرز بعض التوضيحات في
النقطة الثانية من الفصل الأول من الباب الأول المعنون ب "الجامعة وظيفتها وهيكلتها"

⁽⁴⁶⁾ "الاتحاد العام التونسي للطلبة النشأة والمسيرة"، مخطوط من أربع صفحات بدون تاريخ انظر ص

⁽⁴⁷⁾ مطوية الاتحاد العام التونسي، نفس المرجع، نفس الفقرة.

والتي فيها "تكوين الطالب المثقف الواعي بالمرحلة التي يعيشها مجتمعه ورسالته فيها بما يرسخ الثقة في النفس والانتماء الحضاري العربي الإسلامي". لقد أبرزت تلك التوضيحات انتماء الطالب الحضاري العربي الإسلامي. فالميثاق يقر بوجود حضارة عربية إسلامية تشكل الفضاء الذي يشتغل فيه الاتحاد العام التونسي للطلبة. وعلى تلك الأرضية ستحدد المنظمة النقابية تصوراتها للاختيارات الكبرى التي يجب أن تسود في التعليم العالي. فقد دعا الفصل الأول من الباب الثاني المتعلق بتلك الاختيارات إلى "مجانبة التعليم وتعميمه وتعريبه" كما أشار في الفصل الثالث إلى "بناء الشخصية المتوازنة التي تعيش عصرها بهويتها الحضارية المتميزة"، ثم يعود في الفصل الرابع من نفس الباب إلى اعتبار التعريب الكامل للتعليم العالي والبحث العلمي ضرورة وطنية ومطلب شعبي ملح وجب النضال من أجل تحقيقه". لا شك أن الحديث عن الشخصية المتوازنة وربطها بالتعريب يحيل على الطبيعة المرضية للشخصية الوطنية بسبب الازدواجية اللغوية ونزعة الدونية بسبب احتكار التعليم العالي وخاصة في الاختصاصات العلمية من قبل لغة أجنبية هي الفرنسية. ومن ثمة تأتي الدعوة إلى تعريب التعليم كمدخل ضروري لتحقيق التوازن المطلوب. ثم يتدرج الميثاق الجامعي إلى إثارة قضية ثانية لا تقل أهمية على القضية اللغوية وهي مسألة المعتقد التي ينص الفصل الثاني من الباب الثالث عليها ضمن " حق الطالب في حرية المعتقد والرأي والتعبير". لكنه سرعان ما يعود في الفصل الذي يليه إلى التأكيد على أن "المجاهرة بممارسات تصادم الشعور الديني لعموم الطلبة وتنتهك مقدساتهم وتستفز قيمهم الأخلاقية يتنافى ومبدأ الحرية والمسؤولية". وهذا يعود بنا إلى الصراعات الدامية التي كانت تعرفها الجامعة التونسية طيلة شهر رمضان من كل سنة بين التيارات اليسارية الماركسية التي كانت تدافع عن حقها في الإفطار العلني في ذلك الشهر والاتجاه الإسلامي الذي يعتبر ذلك استفزازا واعتداء على المشاعر الدينية لعموم الطلبة.

إن تناول المسألة الدينية بذلك الغموض والضبابية يعكس رغبة من الاتحاد العام التونسي للطلبة في إثبات عدم ارتباطه بالاتجاه الإسلامي كحركة سياسية واستقطاب بعض التيارات الطلابية الأخرى إلى مشروعه الذي هو في حاجة إلى الترسخ

والشرعية⁽⁴⁸⁾. ولكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير في مرحلة تاريخية عرفت فيها الحركة الطلابية بانقسامها الشديد والحاد وتعدد الرؤى التي تنقسمها التيارات الطلابية الرئيسية الثلاثة وهي التيار اليساري الماركسي الذي بتجاذبه فصيلان رئيسيان هما الوطنيون الديمقراطيون واتحاد الشباب الشيوعي، التيار القومي العربي الذي ينقسم إلى الطلبة العرب التقدميين الوجدويين (فصيل ناصري) والطلبة الطلابية العربية (فصيل بعثي) والتيار الإسلامي الذي يتمحور حول الاتجاه الإسلامي (النهضة) بالإضافة إلى وجود مجموعات إسلامية صغيرة مثل حزب التحرير الإسلامي والإسلاميون التقدميون⁽⁴⁹⁾.

-**خاتمة** : خلاصة هذه الورقة هو أن الهيمنة التي مارستها الدولة خلال حقبات الاستبداد السياسي لم تستطع أن تجعل من الحركة الطلابية مجرد مصنع للكوادر وفق مواصفات القائمين عليها. ذلك أن النقاشات الفكرية والسياسية الكبرى التي تضمنتها المنابر الطلابية المتحررة بواسطة الفعل الطلابي "المناضل" كانت تتجاوز أفق الدولة الضيق في الهيمنة والاستبداد. ولذلك استطات تلك المنابر أن تتسع لأنواع الخطاب الأيديولوجي الذي ضاقت له مؤسسات الدولة. لقد اتسعت لمناقشة قضايا الهوية التي تحدد طبيعة الدولة والمجتمع كل وفق منظوره وتصوراته، تمكنت من كل ذلك وتصارعت قواها وتنظيماتها وتعايشت رغم الاختلاف والتناقض لأن الحركة الطلابية نشأت ديمقراطية منزوعة التابوهات بينما كانت الدولة استبدادية محكومة بحزب واحد وزعيم أوجد. لقد عممت الحركة الطلابية نموذجها فأصبح مجتمعيًا لأن التعدد القائم على المنتج الطلابي الهوياتي هو الحقيقة الدائمة وانتهى النموذج الكلياني لأن الحركة الطلابية أعدت نهايته منذ فترة طويلة وقد نجحت في ذلك.

⁽⁴⁸⁾ جاء في وثيقة "الاتحاد العام التونسي للطلبة النشأة والمسيرة" نفس المرجع، ص 2، وبعد حملة من التحركات انضمت بعض الأطراف إلى مشروع الاتجاه الإسلامي وهم "الطلبة اليساريون المستقلون، النقابيون الديمقراطيون والطلبة المستقلون، يبدو أن تلك المجموعات من خيال الاتجاه الإسلامي نفسه إذ لا وجود لأثر لتلك المجموعات على الساحة الطلابية إبان تأسيس الاتحاد العام التونسي للطلبة في وسط الثمانيات من القرن الماضي.

⁽⁴⁹⁾ (الصيداوي (رياض)، "التيارات السياسية بالجامعة من هي وماذا تريد" جريدة الموقف بتاريخ 29 مارس 1990 ص 15.